المحاضرة الثانية: فتح القسطنطينية 1453م

﴿أخبرني عبد الله بن محمد الدورقي ثنا محمد بن إسحاق الإمام ثنا عبدة بن عبد الله الخزاعي، حدثني الوليد بن المغيرة حدثني عبد الله بن بشر الغنوي حدثني أبي قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لتفتحن القسطنطينية ولنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش﴾... **مستدرك الحاكم، كتاب الفتن والملاحم.**

قبل كل شيء يجب ان نتعرف عليه في هذه المحاضرة أن الملك محمد جلبي الملقب بالغازي، وهو محمد الفاتح (833 – 886هـ ، 1429 – 1481م). بن السلطان مراد الثاني، أشهر سلاطين الدولة العثمانية، خلف والده في السلطة عام 855هـ، 1451م، كان ذا ثقافة عالية، واطلاع واسع، تكلم اللغة الفارسية والعربية واليونانية والسلافية، وناصر العلوم الإسلامية، وقرب إليه العلماء والأدباء والشعراء وأجزل لهم العطاء، أوصاه والده بفتح القسطنطينية، فاجتهد ونجح في فتحها عام (857هـ ، 1453م)، ولذا عرف بـ الفاتح لأهمية فتح هذه المدينة، عاصمة الدولة البيزنطية، وأطلق عليها اسم إسلامبول الذي يعني بالتركية: عاصمة الإسلام، وحول كاتدرائية القديسة أيا صوفيا إلى مسجد ما زال يحظى إلى اليوم بالسمعة التاريخية والسياحية.

أدت فتوحاته في أوروبا، وبخاصة في بلاد البلقان إلى جعل بلاد الصرب ولاية عثمانية سنة 864هـ، 1459م، وخضع له إقليم البوسنة سنة (869هـ، 1464م)، ثم إقليم الهرسك سنة 872هـ، 1467م، وانضمت إليه طائفة البوجوميل النصرانية عندما دخل البوسنة، لقرب

مبادئهم من مبادئ الإسلام، واحتل دوقية أثينا، ودانت له معظم بلاد المورة[1] سنة 865هـ/ 1460م. وأقام قلعة حصينة في قلب ألبانيا عام 1478م.

سيطر على كل المحطات التجارية التابعة لجمهورية جنوة في منطقة البحر الأسود، واعترف تتار القرم بالسيادة العثمانية، وحارب البنادقة، ووقع معهم اتفاقية سنة884 هـ، 1479م، تقرر بموجبها أن يدفعوا الجزية للعثمانيين، وتنازلوا عن عدة جزر ومدن، ووصلت جيوشه إلى شواطئ بحر الأدرياتيك، ودخل جنوب إيطاليا. وقضى على مملكة طرابزون النصرانية اليونانية شمالي الأناضول عام 866هـ، 1461م، وأسر ملكها، وقتله سنة 875هـ، 1470م. وتوفي بإسلامبول (إسطنبول)، وهو يعد العدة لفتح روما.

أما مشروع فتح القسطنطينية فقد كان حلم كل الخلفاء والملوك والأمراء المسلمين، منذ زمن الخليفة الأموي الأول معاوية بن أبي سفيان، باعتبار أن هذه المدينة هي قاعدة النصارى ومركز قوتهم واتحادهم، كما أن لها مكانة روحية وقدسية مرتبكة ارتباطا وثيقا بالعقيدة النصرانية، لم يتحقق هذا الحلم إلا في زمن السلطان محمد الثاني بن مراد الثاني، الذي لقب بالفاتح، وذلك في سنة (857هـ/ 1453م)، وبهذا الحدث العظيم تغيرَ وجه التاريخ، وخريطة العالم السياسية، وقد اعتبر المؤرخون المتأخرون هذا الحدث مدخلا لعصر جديد سمي بالتاريخ الحديث.

بنيت القسطنطينية على أنقاض قريةٍ قديمة كانت تسمى بيزنطة، يقال: إن بعضَ اليونانيين أنشأوها حوالي سنة (657ق. م)، فاتخذها الإمبراطور "قسطنطين" عاصمة لدولته بعد سقوط روما والشطر الغربي من الإمبراطورية في أيدي الوندال، في القرن الرابع الميلادي وسماها باسمه، وأصبحتْ منذ ذلك الحين عاصمة للإمبراطورية الشرقية، التي عرفتْ باسم دولة

[1] اسم قديم لشبه جزيرة البيلوبونيز جنوبي اليونان.

الروم، ولا يجب أن نغفل عن القيمة الاقتصادية والتجارية للمدينة بالموازاة مع القيمة التاريخية العسكرية والاستراتيجية(2).

استعدادات محمد الفاتح لفتح القسطنطينية:

سيطرَ هاجس فتح مدينة القسطنطينية على السلطان محمد الفاتح منذ صغره، فقد كان يقرأ كتب التاريخَ، ويدرس محاولات المسلمين لفتح المدينة، ويسمع حديثَ النبي – صلى الله عليه وسلم – مبشرا بفتحها، وقرر السلطان أنْ يكرس كل جهده لغزو القسطنطينية، فهادنَ أعداءَه وسالَمَ جيرانَه، حتى لا يشغله الصراع معهم عن هدفه الأسمى، وعقد معاهدات الصلح مع ملوك المجر والبوسنة والبندقية وألبانيا(3).


الملحق المرفق رقم 08: محاكاة لوقعة فتح القسطنطينية



(2) *Michael Angold, Turning points in history: the Fall of Constantinople, January 2013, p13.*

(3) علي محمد الصلابي، فاتح القسطنطينية السلطان محمد الفاتح، ط1، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، 2006، ص89.

وأنشأ السلطان في مقابل القسطنطينية على الشاطئ الأوربي من البسفور قلعة ضخمة أسماها حصار"؛ أي: قلعة الروم، وشرع في بنائها سنة (856هـ/ 1425م)، وشارك بنفسه في أعمال البناء، وجعلها على شكل مثلثٍ في كل زاويةٍ منه برجٌ ضخم مغطى بالرصاص، سمك جدرانه اثنان وثلاثون قدما، وجعل فيها مقر قيادته، ورابط فيها بنفسه.

احتج الإمبراطور البيزنطي على هذه الإجراءات، ورفض السلطان هذا الاحتجاج، وما كان من الإمبراطور إلا أن أغلق بوابات عاصمته واعتقل الرعايا العثمانيين ورد عليه السلطان بإعلان الحرب. وحشد قوات قوامها ربع مليون جندي، فحاصر بهم القسطنطينية ثلاثة وخمسين يوما، وسط جو غامر بالمشاعر الدينية لدى الفريقين.

منذ شهر أبريل نيسان 1453 طوق السلطان العثماني محمد الفاتح مدينة القسطنطينية بالقوات برا، موازاة مع دعاية دينية وإعلامية واسعة في الأوساط العامية والنخبة، حتى بلغ الحماس الديني أشده، ليصل أعداد الجنود إلى ربع مليون، في هذه الأثناء تزايد الخوف لدى الطرف الصليبي الذي كان مشحونا هو الثاني بالمشاعر الدينية الحماسية، فبدأ الحصار من الجانب العثماني ابتداء من يوم السادس من أبريل 1453م، واستمر مدة 53 يوما، وقد استمات البيزنطيون دفاعا عن المدينة باعتبارها المعقل الأول والأهم لدى المسيحية والمسيحيين[4].

في اليوم التاسع والعشرين من شهر أيار مايو من السنة نفسها؛ بدأ الهجوم العثماني على أسوار المدينة المقاومة، فقد أصدر السلطان أمرا بالهجوم العام على المدينة بحرا وبرا، وانتشر رجال الدين في المعسكرات يصيحون رفقة الجنود بعبارة "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، ركز الجنود العثمانيون على جهة البوابة الشرقية للمدينة والتي كانت تسمى بوابة رومانوس، وعلى الرغم من بسالة القوات الصليبية المدافعة عن البوابة؛ إلا أن الجنود العثمانيون الانكشارية قد

[4] إسماعيل أحمد ياغي، مرجع سابق، ص49.

تمكنوا من تسلق الحصون والأسوار، وأشيع الخبر ان المدينة قد اقتحمت، وبالفعل تلك الإشاعات التي حاول العثمانيون نشرها؛ قد كانت حقيقية، وأن الإمبراطور قسطنطين قد أصيب بطعنات أردته قتيلا مع عدد كبير من الجثث،

بعدها اتقحم العثمانيون البوابات الواحدة تلو الأخرى، ليتدفق الجنود العثمانيون بأعداد هائلة داخل الأسوار، فأكثروا القتل ووقع الكثير منهم في الأسر واستسلموا للسلطان العثماني الذي دخل المدينة في شيء من التواضع والخيلاء معا!!

ودخل السلطان المدينة في 20 جمادى الأولى عام 857هـ الموافق 29 مايو 1453م، وحول كاتدرائية القديس صوفي إلى مسجد، وأطلق اسم إسلامبول أي مدينة الإسلام . على القسطنطينية .وتحقق بذلك حلم المسلمين، وكان فتحها نهاية الدولة الرومانية الشرقية، ودخولها لأول مرة حظيرة الإسلام، وبداية لسلسلة طويلة من الفتوحات والانتصارات العثمانية في البر والبحر، انتهت إلى أسوار فيينا في أوروبا[5].

بفتح مدينة القسطنطينية؛ انتهى الخطر البيزنطي إلى الأبد، وشعر العالم الإسلامي أنه يعيش انتصارا حقيقيا شاملا يجعله يقف في وجه أوروبا بكل ندية، وقد اكتسبت الدولة العثمانية قوة سياسية واقتصادية ضخمة، فأصبحتْ أعظمَ دولةٍ في حوض البحر المتوسط، ودانت لها دول أوروبا بالجزية، وأصبحت إسلامبول أو الأستانة بعد ذلك مقرا للسلطان العثماني الذي تلقبَ بأمير المؤمنين، وظلت حاضرة للدولة العثمانية الإسلامية حتى مطلع القرن العشرين.

لم تتوقف الدولة العثمانية الناشئة عن مضيها قدما نحو الفتوحات في شرقي أوروبا ومنطقة البحر الأسود وغيرها من ممتلكات الدولة البيزنطية المنهارة، فوصلوا إلى بلادَ الصرب

(5) أحمد الشويخات، مرجع سابق، أنظر مادة: فتح القسطنطينية.

والبوسنة والهرسك وشبه جزيرة المورة من بلاد اليونان، وبلاد القرم الواقعة على البحر الأسود، واستولوا على محطات الجنوبيين التجارية في بحر إيجة، كما قاموا بمحاولاتٍ لفتح بلجراد وإيطاليا، وأثينا، وذلك في عهد السلطان محمد الفاتح أيضا.

وتواصلت الفتوحات في أوربا في عهد بايزيد الثاني (886 - 918هـ/ 1481 - 1512م) بن محمد الفاتح، فغزا بولندا والبنادقة، ودحر تحالفا صليبيا في معركة ليبانتو الأولى سنة (905هـ/ 1499م)، وأرسل أساطيلَه إلى البحر المتوسط لنجدة المسلمين المطرودين من الأندلس، وساهم في نقلهم إلى الشاطئ المغربي، وهزمَ أساطيلَ البابا وإسبانيا والبندقية[6].

وعلى غرار الحركة التوسعية والفتوحات العسكرية التي قامت بها الدولة العثمانية على الجانب الأوروبي؛ فقد كان لها أيضا صولات وجولات عديدة في الجانب الشرقي والشرق الأدنى والجزيرة العربية وشمال إفريقيا، والتي سنتطرق إليها في المحاور اللاحقة.

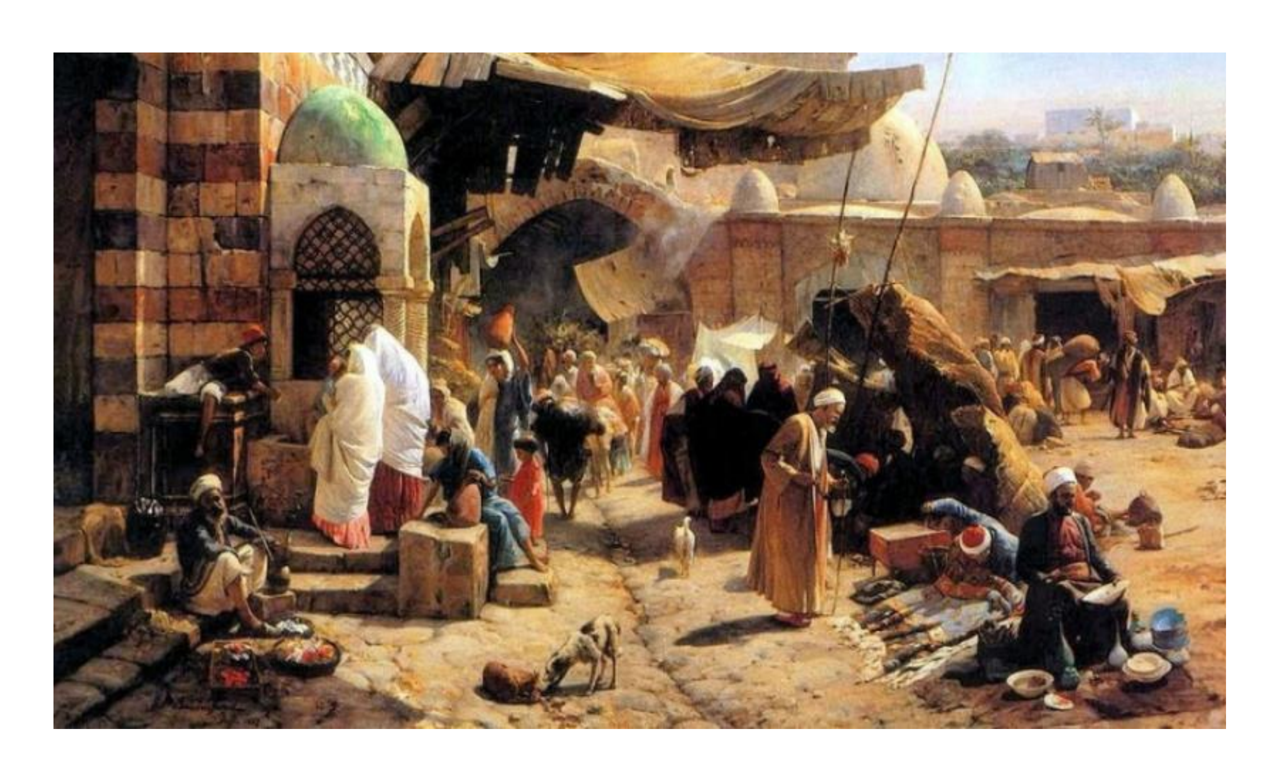
أثر الفتح العثماني للقسطنطينية على البلاد العربية:

لا غرو أن العالم الإسلامي كله قد تناقل أخبار فتح القسطنطينية، وأخبار الفاتح لهذه المدينة، الذي أخبر عنه الإسلام وحديث الشريف قبل قرون من ذلك الزمان، لذا فقد عمَ الفرح والابتهاج في العالم الإسلامي، وفرح الناس كثيرا وتفاءلوا لتحقق نبوءة الرسول صلى الله عليه وسلم، وأقيمت الاحتفالات بها النصر في معظم المدن والحواضر الإسلامية، على غرار القاهرة ومكة وبغداد ودمشق وغرناطة، وكان هذا، في حقيقة الأمر، توطئة للنفوس لتقبل

[6] للمزيد حول هذا الملف؛ يرجى الاطلاع على: نبيل عبد الحي رضوان، جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده في العصر الحديث، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1987.

الزَعامة التركيَة العثمانيَة الإسلاميَة الناشئة، فمنذ سنوات لم تحرز أيَة دولة إسلاميَة انتصارا مدويا كهذا.

الملحق المرفق رقم 12: رسم تخيلي لجانب من مدينة القاهرة في نهاية العهد المملوكي



شكّل فتح القسطنطينيَة عامل دعم للممتلكات الجديدة في الدولة العثمانيَة، وفرض هيبتها على العالمين الإسلامي والمسيحي، إذ أنَ العمل الاستراتيجي الذي أدَاه كان بمثابة كسر حاجز تاريخي استعصى على المسلمين كثيرا من خلال حصاراتهم المتعددة له منذ العهود الإسلاميَة الأولى، وبذلك تحطَم الجدار الأوروبي الأوَل جغرافيَا أمام زحف المسلمين باتجاه أوروبا.

بالمقابل شكل هذا الفتح الكبير النقطة الأولى لانطلاق فتوحات أخرى في كل من البلدان العربية وحوض البحر الأبيض المتوسط، وهو ما شكل تغيرا جذريا في موازين القوى العالم آنذاك.